

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية
واستمرارها

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للمراسيم التقليدية المتعارفة ، ويبنون لهم الهيكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحفظ بجيوتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنقوا الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقيون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الالهون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدما واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التاريخ القديم عمرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبديل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبديل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على ما نقول ، ناهيك عن التطورات العديدة والعميقة معاً التي ألمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيما في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بها عهود ازدهار وتوسع واشاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والخسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة - اي من بناء الاهرام - حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي ، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس . فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطاً منحنياً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاهق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر ذهبي ، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري ، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تنهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظاهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتهم العقيدة الدينية لفاً فتلبسوها وراحوا يستلهمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس المحيق بالناس فراحوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الالهة ومن جهل وجهالة فنالوا حزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمع انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على إحياء الماضي الجيد مع تحسرم عليه وتحرقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال الممنهج المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي اسئل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته وحياءه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتفهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى « مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طامسا نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا سيما عن هيكتايه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحلاتهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينا وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، قلليل من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وطمي يكسبها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة - اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطأ مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبرنبيان في جنوبها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجها اذ ان سيره ومجراه ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنياتها ، وهي وحدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضيي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تتشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والفيضات والاجات الغضبية التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والحارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الاهمية التجارية ما لم يترفر بعضه لمدين الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والإحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض الاستثمار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الأهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي الفوا نهجه . ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

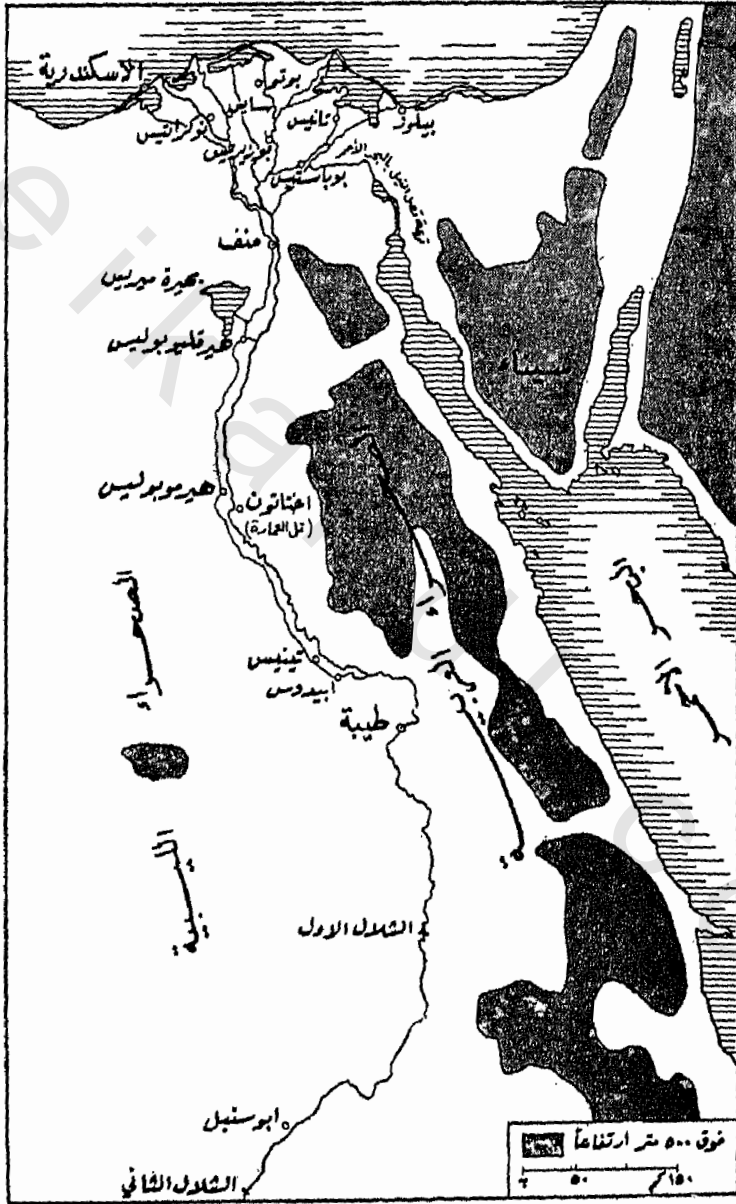
الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حق الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الازمنة التي كان يضطرب فيها حبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الايام الحلوه وعهود الرخاء التي كانت فيها البحبوحة والرفاهية يخيمان فيها على مرافق البلاد كافة . وهكذا نجد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوه ، هذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصاله
كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فما من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقاء بنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخارج ، وهي ميزة تستلقت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطماع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت ، أقل ما يمكن ان يتصوره انسان حدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجه الغزاة يرومونها من هذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعة لا ترام ، كما أن حدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يحتم على حدود مصر ، عدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع الحيز ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والليبية القاحلة الجداء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصر من قوة بوليسية دوماً متيقظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للمقاومة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الاسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لاراضها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخها المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل ما يصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لخوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدنيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم ، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بإيسر مما استطاعت أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلاحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحوتس يحياقله الجرامة ، شواطئ الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قام في مصر من

يُتَشَدَّدُ هذا التوسع ويشجبه ، اذ رأى فيه مسأً ببقاء الحضارة المصرية .
 فاذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدينتها لجو وجوه التطور الذي عرفتْه
 خلال تاريخها المديد ، فهي لعمرى الحضارة المصرية .



الشكل ١ - مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيها فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، انما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالقوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزوا بزوي الفراغة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ - الملك

يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، الملك عمور الوحدة وخالقها تنظيم البلاد على اساس توحيدها . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الآلهة وهيأت له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بها بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضارة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليها ان تتغلب تبعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعين « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقة التي مرت على المملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للمال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بد منها في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينا بقيت حية الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم . ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارة للملكتين اللتين اندجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج به الفراعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعة الشمال الحمراء يعلوها من وراء سيخ عمودين تزينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبيرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولهما بالتالي المرتبة الثانية بين مراقب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشطة الملتفة حول عمود العرش وهي انشطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الغياض في الشمال ، ومن زهرة البشتين او اللوتس رمز الجنوب ، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً : النحلة والثعبان اللولبي الشكل من جهة ، والقصة والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك
 تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمة لملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند مقتضيات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتها التي طالما شبهوها مجازاً ببيضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها ، ولهذا استحققت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبة » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « أمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايبس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد عميل به باستمرار لما كان يمر اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الها ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيدة التي تكون احدى ميراث مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزيريس . وتحت تأثير عبادة الاله رع ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف ، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس - رع او بالاحرى رع - هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنية ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمها وباهة وحلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندما اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلائية ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفويّاً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسيّاً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حية ، قوية ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الها بعد الوفاة . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزيريس ، اذ قام على الارض من محل محل ابنه هوروس . فمن المنطق والطبيعي ، والحالة هذه ، ان يصبح اباه الالهي . والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبال كثيراً بهذه المتناقضات . ولما كان اوزيريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتسم بهذه الصفة الملازمة للملكية . وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزيريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخائعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرّفها في الوجه الحسي النافع .

فالمملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أوْمن طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويبتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الحيرة المدارة ... والحياة نهب بين ضحكك وهو « ففي الرقْم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يجذب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، تعيين الملك وتبريج
من قريب او بعيد، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف اباه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعتمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشرحه باعلاء الحكم وهو في قيد الحياة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً — وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يلطف من حدة وقوعها زواج المغتصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيتيم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبين امون الالج ، كما كان لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالمملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسيمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكير بتوحيد الملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم شارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والوسط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوةً بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض . وهكذا يحمل الملك الجديد الالقب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورع التاجين ، وهوروس الذهبي لحاكة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصبه والنحله » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع . وهكذا نرى رعمسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ - الثور القوي المصفح بالعدل ؛ ٢ - حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ - الممتلئ سنين وفتوحات ؛ ٤ - المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ - حبيب امون ، رعمسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يسربل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبه والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك وتجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكري الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة اله وابن اله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفّر جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآله .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقنص قام بعمل مألوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيظهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيث فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مياهيج اخرى تسري وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيوب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسراير ، يختار من بينهم ما احلولى له ملكة ، يستعيز عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهد الملك تحوتس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين
وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديها بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهة ، عن شكر مصر ويستمطرها شآبيب النعمة ودوام البركات . فالواجب الديني هو اول الاعباء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنة ويقم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استحال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحتم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان ما يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحى بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي ما يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حياة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفته الدينية على الوجه الامثل .

فالقرايين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهياكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستثمار مرافقها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امام الناس بالخشوع والتقوى والامثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المعتمدين . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمل الاستفادة منها لمصلحته وخيره . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتها عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الاسر الطيبة الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انها لازمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيّص لخناتون ان يعيش طويلا .

وظائف الملك : الحرب
الدفاع عن مصر والذود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر مليا في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاطمين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاة من الوجهة السيكلوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هائنين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقصّة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من الميزات التي اتسم بها الادب السياسي في مصر قديماً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهناك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخفيه جزافاً : فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمن مسالكها ومدخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهما غني بالمعادن والحامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلك على النوبة ، فكان البلدان ابدأ من البلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدى اكثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسيا عبر السويس . فمصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدها الى سواحل آسيا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لها شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطورية الوسطى سجل عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القيم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المغتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويحدوا في اثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يجعلوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لها . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربياً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراعنة ذلك العهد ، برزوا ، شاؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجريين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتس الثالث ورعسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراعنة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المبينة التي حققوها ، هذا في مجدو وذلك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويآت تحوتس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالزغابات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر ، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراعنة ، كان من قبل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منها لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاسد في الصحارى . والناس يتندرون بقوته السحرية ويتفاكهون بأحاديث مهارته الفنية ويقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرقد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفعة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرمق المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتم لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنة السلاح والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجريين وقادة محنكين ، فليس ثمة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيم السلام على البلاد ، تنوسي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراعنة ، مكافأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مغزاهما البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية واعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقة كاليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عباد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالهاذير والمفاجآت المفضة أقلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحكم في مصر الى سلاسل ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحبيب هذه الروح اليه . الا انه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبات عابرة واستشاشة آنية .

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لا حد لها وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينسب بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا اله يبرئ ويبعد ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الحلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فمشيئة الملك وارادته هي القانون ولها ما للعقيدة الدينية من قوة وشكسية . « فهو يعمل ما يجب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنا تعود بحرفها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهد بناء الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه منها بدت له قاسية لا تحتمل او بغیضة لا تطاق . فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكشف الملك دونما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعه يدك في طول البلاد وعرضها وسط السجس والجلبة . ولذا ترى الناس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترد يوماً رداء العقيدة . وسلطة الملك ، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى ، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الى مساعدة مصر . وبعبارة اخرى فالتفاؤل النبي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشیئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنده ان ارادة الملك وقضاءه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتبارية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين . وبما ان « هو Hoo » هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والרגائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مات » الا « عدل » و « حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مهيمنة على النفوس، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السمات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آلت اليها الحكم بعد دوال الدولة الفارسية، بحيث ان البطالسة، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دس الملك في وادي النيل، لا يتخرجون ولا يحدون كبير غناء باستعمال التعابير . واللقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفراعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلمها هؤلاء الفراعنة انفسهم حقبة تريد على الفي سنة . وليس من الجس وادع اجماد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت - ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير احني - ان تحدد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل ففهوم الملكية المؤله المثالي الذي يقول بـ : « مات » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلقنا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق بصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنالك قصة شعبية تضع على شفاه فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويحيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالتماسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين واحم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إاجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم نفسه ... قل الحق ، وأبـ العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصغ الى طلبتي وصمت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثاره الابتسامة ولكن اعديدة هي هذه الممالك التي اتيج للروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤله ، بمثل هذه الألفاظ ، وان تتفجر بمثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فيرعون مسترعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفتي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادئ التي خطبها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنّها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فديودوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسببة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشرعي مصر » بينهم مشرع واحد استرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرها حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجعل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومهما يكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحرّم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ - الحكومة والادارة

اذا لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لتوضيح حدودها . نحن نفتقر لتصوص القوانين والمراسم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تليح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيما في عهودها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فقرات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتفيض بذكره ومدحه وحده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً امام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلها ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيام ادارة رشيدة ، منظمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البلاد الوحيد الاوحد . فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية . فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحال الى بعض ما تقضي اليه القوضى : الى البؤس وإلى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبلاد ويشل منها أسباب الحياة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدها التجربة المبررة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيها للنظام ، للآطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدها ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيرة ما اتخذ منها الفراغة يبدأ لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحد من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التمام لم يكن يضاهيه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدة المنتهى في الحضارة التي صاغت انشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أكانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انها كانت تؤلف مملكة — او بالاحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتها ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً ، بين تلك خاص او تلك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بمحدودها الميزة ولها مجتمعا الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القمّ العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » - وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة - كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية
فالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقرر الملك « الصرح الكبير » ، برعا ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرى كل امر ويتقصى كل شيء ، ويطلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بأراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليقات التي يقتضيها الوضع ، فتبلى بأسرع ما يمكن بعد ان تُفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك » ، و« لسان الملك » ، وطوراً « بعينه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير « ثاني » ، موضع ثقة الملك ، يلقيه تعليماته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كما ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيدياً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرسة . فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تبين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تتمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ ومن يتألف وعلام يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرافها ، نجعل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وثميينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجراء ومن الحطل . والافصل ان نرى في هذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألواناً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمة طويلة من هذه الرتب والالقاب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة ، ما اذا كانت الالقاب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرده عن سواه . وهكذا يرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا يعرف عنها في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان علي خزينة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المأمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد ، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

والادارة الاقليمية والمحلية ومهما بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بد ان تتراخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقات جيدة تربط اقاصي البلاد بدوائنها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وفقاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبت بالقضايا العارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا ما اشتط عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالملكيتين الموحدين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيما في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منها ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودها المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي على الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية ، ولا سيما في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم ادارياً الى أقضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثل الوحدة الاساسية ، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من حراء فيصافات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحية او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية ، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانها . وكان لكل قضاء « مجالسه » ، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية ومالية ومدنية . من الصعب على المرء ، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونها . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمة في الديوان والآخرين يملكون غياً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واحياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف به يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين ، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التماهي في العبث والتجاوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتن بامور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها إذ ذاك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتفتتح امامه ابواب الوظائف العالية . وسرى بعد قليل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثلاً للسلطة المركزية .

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة الادارة والحياة المادية في مصر
مصر على الوجه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها . ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يعرئ الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منهما ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تخرج . فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويستيرها في جميع مظاهرها ومعالمها، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيذ الاوامر والتعليمات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة. وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها، ولما اليها من صنائع وفنون ومقتنيات، ولما يدب عليها من حيوان وانسان.

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عملياً بالواقع المرير. فباستثناء ارمات الفوضى والاضطرابات التي صاحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً للماجريات الحية وللاختبارات الواقعية. كان عليها ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منه الى الحرية الفردية، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي. ومثل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انها هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدثت من سورتها وكبتت من شكيبتها.

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمة، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتم بها ويعمل بها، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا. وفي عهد الامبراطورية الوسطى، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبل، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة، وذلك تحت ستار من مثالية العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها واثمت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهاً به. الا ان هذه المثالية بقيت مهيمنة لارتباطها بمجتمعية مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بها، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسمائة سنة قبلهم، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ.

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغت الادارة في عهد مراقبة الحياة المادية وغنى التاج الامبراطورية الوسطى اذ ذاك، من الدقة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية. فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفية التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البلاد، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد، وتبيان ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيد الاستغلال، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات، والارث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصراحة لقيود التسجيل الرسمية.

ان تنظيماً بمثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأود الحياة ، فتمين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته، اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل الدولة وتتجسم .

عاد هذا النظام الاداري الاسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على الناس السخرة ، وألزمهم السهر على صيانة الاقنية وسلامة الترع النهرية واجبرتهم بتشديد السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام الخراج ما يتعلق بجباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار التي كان يتعدها متعهدون مشابة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ، وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبى عيناً ، كما كان الملك يدفع عيناً ايضاً بعض مرتبات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيات التي يقدحها على المحاسيب وذوي الحظوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة بجبايتها للملك . فلا عجب بعد هذا ان تنعم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحصى ، فتختزن المعادن الثمينة خامات او صنائع فنية ، وان يوضع تحت تصرفها حواصل وامراء تفص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ، كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري المحكم الذي كاد يبلغ سدره الكمال ان يؤول ، حتى في المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع يسيل لذكرها اللعاب وتدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجماعية والنهم في نفوس الأغراب ، وشذاذ الآفاق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيراتهم الوافرة والاستيلاء على الكنوز الخبوءة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقع جغرافي عازل ممتاز جعلها، الى حد كبير ، بأمن من المستبشرين وبمعزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ، وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاشخاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجها الفنية ،

وعلى ما يجاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بفلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجلبونه من هذه الممتلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيما مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكوا حبكه ، وان يخمّضوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يئن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الراح المستكين ممثلو السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكّون ويدبرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التشاكي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات محرقة وتنهات كآوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسماً للواقع ، قلما يرفع صوته شاكياً وقلما يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفاتحون والغزاة الأجانب الذين سوّلت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوّّلوا على ما عُرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيما بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الأسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والأشغال الشاقة ، واكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشديد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة ، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفئ الذي تؤمنه للتاج . وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلازم للمتعهدين مشايلةً أو على أنصبه معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم يحكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثـر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقيم في الارض ما يضاهاها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة ، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ إحتفالاتها بجماع القلوب مكنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبداع صوره . وفي هذا السبيل سخرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغت من عظمة ساحقة صادقة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتززع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليات ، فراح يستخدمها للاراء . وهذه النزعة لا تكون المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تززع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صغار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قطع لهم كما يرغبون ، وتشرب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والانحلال يصيب وحدة البلاد فتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الاغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الخرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصبحت بعقم بالرجال الاكفاء الخلقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السليبين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يبرزوا — ولم يجربوا ان يبرزوا — نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء ، ثقافياً وخلقياً ، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييد البناء الديني والعلمي ، والمدني والعسكري .

ولعل من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر . يعتقدون ان مصر ملك خاص او متاع خاص بهم ، فيستندون

بموجبها ذوي قرباهم المتكاثرون عددهم بتعدد الزوجات ، ويقربون رجال بطانتهم ومحاسبيهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الخطوة للاستبداد بامر السلطة . ويمدنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص ، انحلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق القديمة وزوالها العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلك يكفي ان ننوه هنا لما ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هبات واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين أسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذاك ، كما انهم حوّلوا لها رسوم الجباية التي كانت تُقرَض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثية في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « المحافظ » ، كما يسميه الاغريق - رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابنائهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقرابتهم بالملك ويعتدون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اواخر هذه القرني ووشائج هذه الصداقة تترأخي بسرعة مع الزمن وتتحف عراها . والضعف الذي اعتري السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الارتفاق الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنشأ عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ووهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها ببدءاً . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

استطاع ملوك طيبة الأول من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الإصحاح الاعرج الحادية عشرة وبداية الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريعة التي مرت بها البلاد . فحضر منصب «الحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبة شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفّعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُفَضَّ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمّنه لهم ولذويهم ولبطانته من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تفويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال . لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليقات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تنزّى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحترام من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم او «العظام» الذين لهم من الغنى والثراء والبجوجة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيعتصمون بحبل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجمال هو ان حمى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحا في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلبسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أُعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود وللموظفين مكافأة لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما أُعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المفتصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المجذودين هو مثل القائد حورمحب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » ، هذا اللقب الذي كان يولييه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من إحدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله ترواً بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كأمنوفيس الرابع ، او من تنكّر له .

رئيس كهنة أمون تبين هذه الحادثة المزلّة العالية التي تتمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتصقاً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيئته التي يعبر عنها بالتاسات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكثر من الأعطيات والتقادم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة امون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترقفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في أسرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورؤيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تحشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفحل بالتالي خطر رجال الدين . وفي اواخر اسرة رمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مراقبة للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريحور . ومع اننا نجمل الكثير من الوشائج العائلية التي كانت تلاصقه ، فاننا نراه بعد ارتقاؤه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في التوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتتيح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان نتتبع المراحل التي مرّ بها الى ان آل اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريحور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أماننا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تتيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتتأثر بها في آن واحد .

النظام المثالي من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الاله العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبينّا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرف عنه اليوم « بالنطاق الحر » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنها هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالاضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلّها اسئلة لا اجواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول افعالها دون تحيزه في كماله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات المهيمنة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ - الحياة الاقتصادية

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل الموارد الطبيعية واستثمارها سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاوراح المحيية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجميل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض ، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً ما كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرر الحيوانات الأرض بأقدامها .

دون الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا تأخذن حرقاً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأبي فلاح آخر ، يتعب ويتعشى ولا يذوق للراحة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتخفيف المستنقعات ان تشيد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بثبات ، كما كان يقتضي في مراحل نموّ المزروعات ان تمدّ الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك يجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة . قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كله بأعمال فيها الكثير الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يدأ عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً - ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتا - حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سيما الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالإضافة الى الحبوب نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمتها المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان - الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء - بل الثور والحمار ولا سيما الخنزير والخروف والعنز والطيور الباهجة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد .

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى أبعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسهما المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منهما في التسلية والرياضة : فبالرغم من الخطر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحیوان ، اسهم الصيد والقنص الى حد بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن لملايين البشر الغذاء والملابس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المتوجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي قادراً جداً يستعمله الصاغة معددا للزخرف . ولم يعم استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار مادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل وائل وما اليهما كانت جميعها عقداً لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فيديقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحارى القريية تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة ، يوفر للمهندسين إحدى مواد البناء الكثيرة ، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليهما في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتل هذه الحامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة . روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء ، وأعمال حفر الآبار ، واستخراج الفدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصيد وقاطف العنب . ولا شك في ان قسمة عمال المقالع والمناجم - وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء - كانت أشد وأدهى من قسمة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لآلم ولا يأبه غالباً للحياة الفردية نفسها .

توفر لمعالجة هذه الحامات عمال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن .
التحويل والمقابض
ولم يكن يومذاك من تميز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتعهد بها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الاله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلفظ المناخ يحد من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحاكة والتجارين والصاغة والحكاكين والتقاشين ان يصنعوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبيء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الاثريين مؤانئ المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجع المقايضات الخاصة ولو طبق بالتام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومة الضخمة ان يتلمسوا بمثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة؛ الجنود والموظفون والكهنة الذين غدت هذه التخصصات محاصيل اقطاعاتهم . ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرها جديرة بكل انتباه واهتمام .

وتجدر الإشارة هنا الى ان مصادرها هذه محصورة مواضعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل انحصارها . ويبدو ان الدلتا جاشت على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وتملتصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب النهرية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انعزالاً فيها فشعرت بصواعقها وبقوتها الحقيقية ، وشددتها الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدق ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الصقلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايس احدى مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبتته - وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ .. - لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : قالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثر سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزنا معدنياً كوحدة حسابية مثلى ، ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعاً تعادلت قيمتها مضطرين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجلي ان هذه الاساليب وما اليها قد شلت حركة الصفقات لانها لم تكتف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية
ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لا سيما اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالاً للشك في هذا الموضوع .

واذا ما اركننا الى هذه المعلومات ، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً . هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فصر التي تكفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكاليات من مصنوعات الزينة والزعفر ، والملك وحده اخيراً يتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجديدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانئ الفينيقية وامها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدي الروايات ان اتفاقاً تم التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موفدي هريمحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدة لمعبد الكرنك ، بقطع المصوغات والاقمشة الكتانية وخمسائة لفافة من البردي وخمسائة جلد بقر وخمسائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبليغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البعيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهددة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدي التجديدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطئ . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة العجيبة من جواهر ثمينة وعطور وطيوب . وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلعوا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

يجذورها وأُتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني، فجاءوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخذلوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة أو أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأجناد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . واذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الخضراء الكبرى » غرستها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتية في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، ايحيين أو اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم . ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخذة . وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلائق عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التلّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة ، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنها اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا أكثر تسامحاً وتساهلاً . وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها
كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآلهة والملك الاله والموتى المؤلهين . ولجأت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان يمكنها ان تلتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنياتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتها على كل حال ان تسدّ الى حدّ بعيد العجز التقليدي المزمّن في قوين الشرق الايحي الذي يوفر لها

الحاجات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفيق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كان من شأن المقايضات ، لو حصلت ، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين ، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشديد حضارتها الكبرى قبل غيرها من مآدلتهم المقايضات ، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعت الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل أعلى في الاستقلال الاقتصادي - وهذا المثل الأعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمل عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار - وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على ما يكفل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عن الاستزادة فقط . وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بما يضيف عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية .

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وثبتتها أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم : تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ - المجتمع

الأوضاع الاجتماعية : الرق ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق الخيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشرأ . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجناب في الأصل : أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج . وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليبيون والأسويون أسماء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسيتهم . ولكن ليس من مثل واحد اكد على وجود عبد مصري بحصر المعنى ، مع اننا نجعل مصير الأولاد الذين أنجبته في مصر النساء الأجنبية المستعبدات .

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفاقاً لثانة وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار ومجبوحة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأوّل يحتفظ بالقسم الاكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتزقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء أعمال الترجمة : فحدث يوسف مثلاً ليس بالعبيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للمقربين اليه وخصوصاً لمحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بمغانم النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن ، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الخسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويحوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبيد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت لتختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً ببلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة
الاسرة نطاق مظلم آخر . في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته « اختي » كما تدعوها « اخي » . ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع . فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقسام الملوك ، في بعض السلالات على الاقل ، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم . اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية وارادة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف تحمل المرأة في مركز هرموق بل في مركز الصداقة احياناً . فغالبا ما انتسب الابناء الى أمهاتهم انتسابهم الى آبائهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بـسيدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقد زواحي محدود مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منها بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنوعة بالغنى التي تستطيع تحمل ما يجز ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالإضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الازواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجعل ما اذا كان على المحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديداً البعد عن الفضيلة ، وهي إما لواذع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق ، لا سيما ونحن نرى بازاء هذه الروايات ، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد المرأة منها على كتف الزوج ، مما يدل على ان الموت نفسه لا يفصل بينهما . غير ان للفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويجدر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينات من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون » ، في السلطة الروحية والزمنية على السواء ، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهم معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتلان مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنتظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى ، ولعل عزوفها النسبي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية نحن نجعل كل شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تترامى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفقاً للطقوس واعراف الجناز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الارملة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الاغريق ببعض الدهشة ان

المصريين يرضون « بتربية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شات الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على اهلهم وتركهم يستهلون بين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحياة قطرية نضيرة ، ام انسان المستقبل ، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقف عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيويته والعابه وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعتبر احياناً بقوة مؤثرة جداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة الفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاء . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حرجة الموقف وواجهوا بعض المضاعفات الاقتصادية : فهي بلغت ارض النيل من خصب مغذ ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشمرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلّى بتوسيع رقعة زراعة القمح في اليوم على حساب بحيرة ميس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارحاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكتسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة - فيما لو امكن وضعه - يصور التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها ، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، الى الطبقات الوراثة المنظم رتباً وفرقاً ، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً . فاذا ما توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

الاتجاه المحتوم
الى الطبقات الوراثة

تجدها المتواصل ، حلاً يكاد يكون آلياً . وهكذا يتم تلقائياً تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى إيجاد العمل لمن هم أصغر سناً .

ولكن هذه النزعة لم تقض قط الى جمود شامل . فهي ، بدلولها هذا ، وبفعل تجاريتها ومنطق النظام الضمني ، قد أدت الى نتائج عملية ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل الغريزة ، يكتشف الابن على صورته ويطلع على أوتليات معرفته وفنه بإشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكاً عائلياً خاصاً . وإذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحلّ محله فيها . لحد ابنائه أو أنسابه . وهذا ما يفسّر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . وإذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصاً فقط . قالتجار مثلاً وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، اُمنع من ان يدركها البحث والاستقراء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المترامية . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عملياً لأمور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساساً الى العظماء المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند دخايل المدن .

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي
الأمثلة الاجتماعية : الفلاح
حيثها الفنانون والكتاب المصريون نهائياً بالرغم مما فيها من
صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموله ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللشعوب الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالاً اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الاحمال على ظهره او الاشتراك بجر الثقل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقاً لفيضان النهر وانخفاضه .

ولكي تتمثل حالة الفلاح ، يهون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الطلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، عملياً ، حتى اذا بدا حراً فيما بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونها . فهو مرتبط « بمحقول الفرعون » والمعبد - وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان - او ان عمله يعطى ويباع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتاً شيدته يداه من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الرواح ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية المبيتة منها احكام ابقائه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد أثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواء حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجيده بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجهاً كان عمله ام حراً . فهو لا يزال يروح تحت كاهل السخرة التي لا بديل عنها لاعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادره قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيده يقطع حصصه دون هودة ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتمثل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطاتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجربان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقرينة تصويرية ضربات العصي يكيلها للفلاح مرافقو جاني الرسوم وضروب قسوتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأته بالحبال امام ناظريه ويكبل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه حيراه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأموه والتحققات المشددة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالخالفين والعدل يوزعه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرد مادة للتريد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترتب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضاً تصف بقرينة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتبهر عن حرارة فرق العمل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او بدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو ما نحب » . ثم يسيطر على الجميع جو من المزاج والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالها البجة فرحين بالمعاب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضياً عن قسمته وسعيداً بان يبلغه ،

بهارته واخلاصه انظار سيده الذي يوجّه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .
 وإذا نحن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزودة بالمشاهد
 الريفية انما هي مدافن العظماء المتعاضدين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات
 الراعوية انما هو حقول العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه
 حاملي أسياهم : « نؤثر الحمل المألن على الحمل العارغ » . ولكن « هجاء المهن » من حبهته
 يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه
 الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الهرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل
 هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس بمكنة الفلاح ان يلبس شقاه الا بمقارنة قسمته بقسمة
 غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح
 الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يمس . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في
 هذه الدنيا ، ولكنه سيحصله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي
 حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والانسلاخ ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح
 العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح
 الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون
 تعارض بالرغم من تباين الألوان فيهما ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميرة
 من أخص مزايا مصر القديمة ومن أكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ،
 ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطوعة والهائلة والمتواضعة
 والمتجلدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص المجتهد الذي يتلقى
 مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصهر في الجماهير .

يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية اخرى .
 العامل يلف « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما يياثل شقاء الفلاحين
 ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزبُن في الأزقة
 والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « أكثر من بيوض السمك » والحكاك
 الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحات والملاح والحائك والخراز وغيرهم
 ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسولون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن
 الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم
 افظع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً ، فهم يقصدون
 المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، ما كلاً وملبساً . ولعلمهم ،

بالإضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطالبهم . ومثل هذه الحوادث بما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سيما في اعمالهم الزراعية .

وكان يودا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيين المتميزين الذين جمعوا رصيذاً مدهشاً من التقنية فاحلّوا مستوحاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفثوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبائنهم ؟ من المغالاة والتهور نفى ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع - اخناقون قد تجاوز كل عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاوّل في الزم . وفي اكثر الاحيان لا تحول كفاءات الفنان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كما مل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

الجندي كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي تولبسه النفوذ وتحوله حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندي ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبة الجنود العاديين ، وهو دليل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السليبي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثارتها فيهم لا سيما وان الانظمة الدينية والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشد على هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عند الفراغ ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر اجماده ، لم يكن مصرياً بل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان اليهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينهما . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداته متجانسة من حيث قوميات افرادها . اما اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمسب عليه الادارة تأمينا لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بجؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرضى المرتقة باقطاع كل منهم ارضا ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأمينا لحاجاته وساحات عائلته . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهد سلالات سايس ، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطع كل منهم ثلاثة هكتارات وربيع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن المخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصا غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصا ، ألا يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلا او اجيالا الى الوراثة .

فاذا كان الملك يحتفظ مدينا بحق تلك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الاباء كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمن الجيش بديلا عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائيا في مصر يصبح بعد حين اصلا لفروع كثيرة ويتمصر احفاده رويدا رويدا فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثة التي ألمح اليها كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتقة تضخم عددهم منذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثلة اكيدة حتى نتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة للنقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحتم بالتالي العودة الى البدء كلما مست حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يبيح ذلك .

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراغة جميع ضباط الجيش والاسطول ، لا سيما في جميع العهود ، لان المرتقة قد احتفظوا احيانا

الضابط

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض المنارات للقلق والغتصابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراحنة . كثيرة هي الكتابات المدفنية التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد اولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثال في الاذهان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدد « هجاء المهن » على ما يلزم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عناء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنا شأنه في تغيير وجه حقيقة مهن أخرى كثيرة ، لا بل يغضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريع ، وخصوصاً التعمين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثلة لا تحصى على صحة ما تقدم . اجل لن يجسر ابي مستاء على ان ينسب لسيدته نكران الجميل ، ضمناً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصه الا اذا اعترف بجميل خدامه المخلصين . ويبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحملون أحياناً بالجزيد من السمو والارتفاع .

يبقى أخيراً أولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ الكامن عهد الطفولة في المدارس الملحقه بالبلاط او بالمعابد حيث تحتل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدّ الوالد ابنه لها ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهماكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء ، كرّس كثير من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحل ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تحتلف تقاها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعمين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله ابي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية غاية في القصر - اجزاء من اليوم - واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات » . ولكننا نجعل كل شيء عن تربيتهن ودورهن في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الالهة امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » أو « عابده » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي يرأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة واسعة بفضل ما للاله الذين يديرون شؤون معبده من نفوذ وطيد وثروة طائلة . وما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة « مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى » اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تقلح دائماً في صدّه وابعاده .

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التعلق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة . واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزهم في عهد رمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والاربعين ، و « نبياً اولاً » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينا يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسرع غير عادية زادت انجداها في القوة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد . فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو ينتقى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القميين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو أخيراً يحيش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

الكاتب
نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه . ولا يشدد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الأخرى وخطارها ، إلا لبرز ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبث موظفي الادارة . وهناك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تم عن حسد او تامل . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعها : « فالكاتب هو الأمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابتعد عنه شبح التعب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحميته دون غيرها . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الامس في السعادة المرجوة ، كلاً من الطالب والمبتدئ ، على الابتعاد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الخط والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصور هذا المثال احسن تصوير ، منذ الاسرة الخامسة في واسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرص » الذي يعبر عن حدة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، وافرهما عطاء سخياً ، مما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيا ، شعور أخذ باشتراكه الشخصي في سلطة لا حدة لها ويتساميه على الجواهر بمراقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابتعد من ان يرضن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثه الوظائف وفقدان فعالية آلة الحكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القعة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادئ الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطاياها المتكرر . ولكن انانية الانسان الفطرية قد سخرت منها الارضيات لصالح اولئك الذين عملوا تحت ستار تلك القوى الالهية وباسمها ، اغني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحام والمنطق - من الوجهة المثالية على الاقل - في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلت قوتها الخلافة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في الدين » ، قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبيات دستور العادات والمحرّمات الذي سنّته تقوالم المزمّة . وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفعناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحدها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للمبادئ التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ - الآلهة

التعدد الاساسي عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم . وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لاسيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكرراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لإله نجعل لهذه الغاية أعلى منهم شأنًا وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يُساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ومحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت ، « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم » . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهاء منه الى ما يغرينا في اكتشاف مدلول ذات الالهية . جوهر اساسي او سائل هيوالي تنصب عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعية ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكون الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحايد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حد بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر ، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بممكن الا لنخبة محصورة العدد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابدأ ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفقت جدلاً الى مذهب مرضي ، لقابله المصري بالامبالاة وعدم الاكتراث .

تعمكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بها الواقع والخيال
صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجية الجماعية . وقد يرسم في الفكرة الدينية بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الاخرى . ولكن لمصر خطوطها المميّزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من المضغلات التي واجهها البشر في علاقتهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بجياتهم ، فهي قد انبثقت بديهاً من المادة الجامدة ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للرئيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعدتها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء نفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التأليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلد احد انهادون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف ، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وفّق المصري بين صور مختلفة متناثرة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترتسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالخلاق الضرر بالصورة انما هو الخالق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : فمقابلة إسمي* إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تفضي الى النتيجة نفسها التي تفضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال ، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ؛ منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة ، والخيال من جهة اخرى ، توفر للفكرة الدينية امكانيات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر يجتدتها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء ، او تهدده تهديداً فقط . وهو قد رآها بام العين وحاول تهديتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها الخفيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتهما فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرته الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماض سحيق ، فانها قد حددت تشبيه الآلهة بالانسان احتفظت على مر الايام بالظواهر البدائية ، وبرزها بلاريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوان نافع او مرهوب ونبات خيّر كالبطم او النخيل . ولكن كيف نتصور تأليه المترس والخطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فما لا ريب فيه ان لهذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً . ففي اوج الحضارة المصرية نفسه ، استلذت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً او صفة على الاقل يعيدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصل بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل الثغولات .

وفيما يلي مثل واضح بين ، اكثر من اي تحديد ، تنوع الجلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف اليه المزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للرهر . ثم اصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهة التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حاتور اوسع ترحيب حتى خارج إيطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حاتور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها اذنا البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهر احياناً .

وقلماً صادفت عبادة النباتات والمعادن انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الاول . وعلى نقيص ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو انقصت بالبروز أننا والانكماش أننا آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تمل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الاغريق واللاتين ، بدهشة واثمراز ، الى الاكرام يحاط به هذا او ذاك من الحيوانات ، وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله ، والاحترام يؤدي الى ممثل الفصيلة الحيوانية المعننى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت . وليس من النادر ايضاً ان يلفقوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك . فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميريس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميز به حلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمال التنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث محنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهرة والكلاب والحبارى والصقور والاسماك . . المنتمية لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر . غير ان عبادة الثور أبس في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة الى ما بين القرنين الرابع عشر والاول قبل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه ماريت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء «فتاح» الاله العظيم الذي هو « بشيره »

و « صورته الحية » ، ويحيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقادم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنازية تستمر سبعة ايام ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً ، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها . فعبادة الكبتش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القدم . ويتكلم قدماء الكتبة ايضاً عن ثيرات منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم علم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتها من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآله ما يتميز به الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكراً جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

والى است هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقسح الديني الالهة المليون : تعدد وجمعهم المصري السحيق يمثل بمدد لا يحصى من الآلهة المليون الذين يُنظر اليهم كأسياء منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطلول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة المللحية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل مسا عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التهجئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانماطها . وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة بصورة الاتساع . ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتسح ايضاً ، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هذه السمية السطحية ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الاله . وكانت باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان يدعوا تقوالم وفاقسحاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة المليون بطرائق مختلفة . فلبجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبقى قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ، ولكن حينما وجد اله رمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحمل محله . ولجأوا الى الترتيب والضم ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتُمدت لكل الآلهة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها . وهكذا يرجح ان حاتور قد اشرتكت احياناً في بعض المثلثات كألم هوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا ، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتصر كل منها بقوة السلاح لاهلها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيده . وهذه الطريقة ، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمنتصرون يأتون بالههم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحلوه المقام الاول : ففتح آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محلية ، الآلهة الكونية والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤقتة ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا نعرف الا القليل منها ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبثق بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليها . وقد تميز مصر القديمة بانها لم تنصّب إلا العدد القليل منها . فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الحباري المعد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدة آلهة لكل من العناصر التي صادف تأليها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفوضي الى ايجساد آلهة ممتنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديد هنا او هناك على ظواهر او بؤادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومهما يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصبحت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لأولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوتها اشعاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادةً ، معابد وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للمثالة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، ودالك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطفئ عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدي الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشعبيون
كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشاع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاعنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قيمة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعتبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمتقنين الذين يأنفون ، بفعل انتمائهم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأنفون ، على كل حال ، عن التكلم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصح ان نستقرئ من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأنًا يغلب عليها الاغفال ، كبعض التائم والتعاويد الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدا ان عبادة الشعب تميل ، بالتفضيل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقومات العبادة ولم تكن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشعبيين . لذلك نكتفي باعطاء فكرة عن تنوعهم . لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يجعلنا على الاعتقاد بأن عباد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عباد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قتل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . ومما لا ريب فيه على كل حال ، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامي المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقنّع بقناع اصعر ، مشهور بترويض الاسود ، محاط بالقروذ الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضاً ، نخص بالذكر منها الجعل الذي انتشرت تماثيله التوفيقية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤلهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بمجائز طقسية اصبحت الهة عند الموت ، ولكن لذريته فقط ، وما كان يتيسر ، الا للتأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيما « احوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة) ومهندسه وطبيبه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الهة شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منها الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لها في مصر عدة معابد اخرى .

لم تنتشر هذه العبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير اوزريس قد اسهمت باكرها في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الالهة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الاوساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبجثته ، وعثرت عليه ، وثأرت له ابنة هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذبوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيما ذبوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فاثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيما « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بينا ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان وفاقاً للمكان احياناً وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نرانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزيريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدها . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيا هي مصدر عبادة اوزيريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزيريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك ستقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزيريس ، وهو ابن الارض الإلهة والسماء الإلهة يموت ويبعث حياً ، كما كان اله زراعة انبات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترينا اياه على التوالي مخضوضراً واماياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوة مصر الحمية الكبرى ومماثلته لها . وليست هذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة . ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولاً ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوة مستعادة . وقد قيل لاوزيريس : « النيل منبعه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الحيرة . وقيل له ايضاً : « انت النيل ؛ الآلهة والبشر يحيون من جريانك » . وقد حظي الفرقي ، في عهد الانحطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الفريق « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين المزيتين وحدهما ان تجعلا اوزيريس إله مصر كلها . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلك ، لان مقتل اوزيريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزيريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزيريس اقدم انسان ألّهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة . فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزيريس ، لا اوزيريس نفسه ، فان الدعامة « جد ged » ، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزيريس يحمل دائماً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الحؤول دون مماثلته بالملك الحي الى احلال مكانته سدره المنتهى والى انضمام الجماهير الغفيرة الغفيرة الى صفوف عباده . فملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقد اجريت على جثته ، لأول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امنت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزيريس ، حتى يصبحوا مماثلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول .

فهم رعايا ملك الاموات يخضعون لدينونه بعد اقتنائهم به ، ويجوبون بمعيتهم مياه العالم الثاني وحقوقه . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاضة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزيريس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالباً ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجعة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعها كلها حجج قوية ، الا الدليل على ما احرز من نجاح وعلى ما فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فأسطوره المأساة نفذت الى قلب كل من زوجته وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعاً تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، ففقدوا انساباً له او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اوزيريس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقم الكهنة بأي جهد لاحتلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهة من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

دعنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم المذاهب اللاهوتية الآلهة المصريين الكثيرين تنظيمياً متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبده ، من القوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجتزأة احياناً ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكَم منها ما لم يعد يترأى امامنا فاصبحنا لا نقدر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينية عالية ، ومقدرة فادرة على التجريد ، وبراعة في استخدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعائم بشرية قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلها نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجاد حل لمشكلة الموت الملقضة . لذلك وجدت معظم النصوص المعتمدة لهذه المحاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النوايس » مثلاً . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهى يقول بتفوق اله معين . وكان بناء هذا المذهب الهدف المقصود للقائمين بهذه المحاولات . ويغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق الههم، على نحو قناعتهم به . ولم يقيم انوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احيانا ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقتناع .

لا يسعنا هنا ان نفصل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهمية
مذاهب هليوبوليس ومنف :
التي اسبقتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها
دراسة ولو موجزة ، لاسيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر
من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ،
تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمالاً ، اقدم من غيره من
المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الساكر . وقد
كان له اعمق اثر باختياره الشمس الها رئيسياً . فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى
ذاتها - لانها خرجت بلاء ارادتها من المياه - سوى « اقوم » . ولكنه كانت يلبسها شخصية
ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحصري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلها .
ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان
الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً وازيف
لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب
دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس
ما يمتنعنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشرار حتى ينال اله
كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزيريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظماء ، ان
يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا
من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هذا الخيار خدمة
جلى « لفتاح » الذي تبوأ المقام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا
المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اقوم » ، ليسوا
سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العاقلة وينفذونها .
وقد احتفظ « فتاح » ومعبد بهرموق ، حتى عندما انصب عطف الملوك على
آلهة آخرين .

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن
امون وامون رع التي اطلقي الاغريقي عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم .
وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ
مكابة مرموقة خاصة حتى لو حرّدها من كل صلة سواء . ويدور ان آلهة كثيرين جداً قد
انصهروا فيه . آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، واله قرد ، واله حبارى ، واله قمر . وقد نسب اليه
القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعلوم
وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغداً مساعد اورريس الاول ورئيس
الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باورريس بحيث انه لم يكن
اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الهاً انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هو
« امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فها دعاه الى هذا الخروج وما هي
المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك
شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبده
المحليين « امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون
السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من
الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة
المطلقة التي تتمتع بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من
مظاهر هذه السلطنة . وكما كنا نود الاقتناع ، بصدده هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية
عبرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق
يوجب علينا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكماء قد تباروا خلال احيال طويلة في السير على
خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى
والحديثة ، وبعدها ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . ففسداً مع الزمن ، ومغالة في تصويره
مادياً ، والبدأ للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بالدة
الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسة مائة سنة قبل
المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة
باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة
الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء
حكمه ، والاسراع الى نجده في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية
الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم اشرك « برع » ، ليكون معه « أمون رع » ، الذي
استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالاضافة الى أسرته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تباين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فألهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لاله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقياد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاقونية » ومثلها أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات جمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر هؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية يلزمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدد والتي بلغت حد المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلني ، فأخذ تصلبه يتضاعف شدة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية ، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضاف على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله « أتون » ، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليفة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « أتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الاله الشمس . ولا ضير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصله نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابيه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحاً ، فأصبح « أتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لاله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك اخناتون ، حوالي سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . وبمكنتنا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجرائمه . فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقترب باي اجراء جدي محدّد الاهداف . وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرد بالسلطة مشدداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل ما لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا . فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغفلة لا تترأى فيها شخصية واضعها . اما هذه المرة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمعالجة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبادة الاله ان يفاخر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لأول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقلاع عن التصحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثالي عن الكائن الحقيقي لظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقىها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه مما يثير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بؤة اسلافه لامون ، مستعيضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستسلماً بكلّيته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثله على هزاله وبحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفساني . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا ما قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيواناً او نغلا بل شمساً كما يراها البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة واياك تتناول ، عند اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بجميله باستخدامها الخبير للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تنطلق من اوكرها والمراكب تمخر عباب النهر صعوداً

وانحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فعقيدة « ماهات » او « العدالة - الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادئ الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمم عبادة الهه وألفى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبايح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب اكثر ثباتاً واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لأعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنتسب الى الاله الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اختاتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مدهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهاد هذه التخلية ففرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشنت كهنته ولوحقوا واتلفت صورته وعفني اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك . بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى ؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فتحن نترامى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالجهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . ونعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كلياً الى الامور الدينية ، قد اهل ممتلكات مصر في آسيا إبان تعرضها للزيتون . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . اما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيما بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورحبيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون واله في صورهما وفي كل كتابة ورد فيها اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الالثرية .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعمرت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة . ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية من الجلي ان المصري لم يابه كثيراً للتعالم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايح بشبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفقاً للمراسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتتضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشئة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، الى جانب صورة ضارب العود . وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تعباً بغدك » . « لا احديعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بمحاجاتهم فتهداً قلوبنا بانتظار ساعة لحاقنا بن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبه رغبتك ما حييت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجمل يومك

سعيداً . لا تستسلم لهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب . . »

ولكن هذا الاسكار - الذي ينتهي على كل حال ببناء الى الفرع ، لا الى التشاؤم - لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كثافة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعها لم ينظروا الى الشكوك التي تم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجتمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقنات الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بجمرة ، على نقيض ذلك ، انتقالاً الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير مخوف بالاعطاش ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بجهنم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن تشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكتفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال بالحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضى منها ببعض الضمانات المبهمة التي تنسج خيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احياناً .

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائدين فولوجوا بخيرين . حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت

نقل العقائد حول الحياة الثانية
الى مستوى الشعب

اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهميته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادئ تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقبة مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتقرأ في فيها الحياة الثانية التي يلجأ : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالحدة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احياناً كاملة تارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اصف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى . وتحديدأ لاتجاه هذا التطور العام ، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعبر عنها هذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخذ بمعناها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائدين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

لا نعلم شيئاً ، في عهد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضعاً جدياً . وقد زادت في ضعته تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالوهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قد لا يكون لا اوزيريس ولا رع ، وعن رواسب عقيدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنا ، حينذاك ، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبه هذه النصوص احياناً الملك الميت باوزيريس . اجل ، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزيريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزيريس ملك مصر القديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزيريس آخر لا سيما وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحل محل عقيدة اوزيريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزيريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وثلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضالة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقابلة القائمة بين الملكية الارضية والملكية السبائية تقضي حتماً الى تخيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت اسرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العالم الثاني ، من احاط به على الارض . وقد درجت العادة ان يمنح من يريد شملهم بعطفه الارض والترحيمص اللازمين لدفنهم على مقربة منه ، وفقاً لرأسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لرمسه شكلاً ، اقل منه حجماً . فيستمر هؤلاء المحظيون في مشاركته حياته المحيدة . ولكن فتح هذه التلمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الاشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع » ، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و« مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى ملكته السبائية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يجتاز هو النهر في بطاحه . احل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزامت فكرة دينوية اخلاقية تتناول اعمال حياته الارضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا ، انحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادي فرضته الالوهة على عظماء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستتمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها مجاحاً .

تعمم العقيدة الشمسية
في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة أثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تتراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السبائية نتيجة وانعكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً . وقد أمن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الخنازيرة الموضوعة اصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرسست الامبراطورية الوسطى هذا التطور يجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له .

الدولة . وبعد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيمياً جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجة في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائماً الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزيريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهها . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة - لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحقيرة - تتكلم عن اوزيريس كما عن اله يتحد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزيريس احرزت تقدماً لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة - العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً « تعاليم » ملك لانبه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزيريس لم تلبث ان لا يستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزيريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعبوا هذه الآفاق البعيدة . فلا ذكر للراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم ، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انساخهم بدقة بما هو مطلوب منهم . وبرز شعور بمائل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشرعوا ، إلا في عهد الامبراطورية الوسطى ، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدمه ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخریات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

كان انتصار اوزيريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من انتصار عقيدة اوزيريس اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه ، من مجموعة الاله رع ، كـ « ماهات » ابنة رع وكـ « طوخ » مثلاً . وتخلت هليوبوليس عن نفوذها المركزي رئيسيين من مراكز عبادة اوزيريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله إبان حياته

الملكية ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزيريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويمرثون تارة اخرى الارض التي يهيم اياها اوزيريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هائثين وغير منظورين ، ليتلوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم . ولكن لو نظمت هذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمناً ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنة واغراء .

وزن النفس وما يمينه لم تكن هناك ، على الأرجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبل دخول مملكة اوزيريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لديونة صارمة وزودوا كل ميت ، حتى الجرم ، من جهة اخرى ، بما يضمن له صدور الحكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادئ الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادئ الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزيريس على عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، ويلتظر وحش غريب الحلقة الحكم الذي سيسلمه المحكوم عليه . يوضع قلب الميت وريشة ماهاث في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوة . انها لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سلبين » متوجهاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضياً منكرأ ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابكة غير منظمة تتجاوز فيها الاهانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقترفة ضد السلطات المدنية ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تحدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجود الاجتماعي والفردى على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فك من الأكاذيب انطوت عليها هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادى القصادة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقة كانت المحكمة ، بالرغم من قساوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقل بالمساومة . وبعد هذا ، يبقى الميزان وهو المرحلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلبي امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من ورنك حجة علي ... » لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتصم ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناها ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم ترود الميت بكل ما يحتاج اليه للتغلب على المكاييد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشرة في هذا المجموع . وكان لا بد من ان يقلق لها الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيه الذاكرة البقطة ، بمساعدة الكتابة الموضوعية الى جانب الميت ، ان تخرج الاسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر » ، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قميناً بمحو اخطاء الحياة الارضية ؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه المقبل مضموناً . ولكن ما من اثر ، في اي مكان ، لتحفظ يحصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرماً عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنها تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فماذا يكون علم الاخلاق عملياً ، يا ترى ؟

٣ - العبادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة ، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلم به ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهملين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرة العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره أولاً وعلى الجميع أخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزيريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزيريس ، فكيف بطقوس عبادة الأموات ؟ وفي العجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهة سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الاله يشعر بما يشعر به اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تُدخل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الاله تحت اعراض تماثله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفيه والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعياد ايضاً . وكل هذا كان مضموناً باسم الملك الذي يحزل الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجديات وصلوات وناشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الاله ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدتها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمها لأبيه اوزيريس . ويقدم له بعد ذلك تماثلاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيب ويخضبه . ويقدم له اخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سباط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماضٍ سحيق لم تحل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعياد ادخال البهجة الى قلب الاله المنفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعياد ، على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم كشهد اولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في هيو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المحظيين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفقاً لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهتزازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعياد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الأعياد الملكية ، وهي دينية قبل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعياد الجلوس في منف ، والأعياد التذكارية السوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدد نشاط اله في مواعيد دورية منتظمة . اما الأعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، على معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احياناً . كان بعضها يستغرق اياماً عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احياناً تستعيد اسطورة الاله وتشارك فيها ايضاً بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرها الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزيريس التي استوحيتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استنزله فيها من إلهامات قد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجبائزية وعبادة الاموات
ويفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيام بطقوس تؤمن الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ، على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويسه الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزيريس لاول مرة : انتزاع الاحشاء ووضعها في اربعة آنية من الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزيريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد راتنجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقيطها بعصيات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كتها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الوافي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابجار على النيل - على غرار اوزيريس - ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية، وضع النواوس في مدفن مصمم كمسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس بأعمال سحرية ، اهمها « فتح الفم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسول له نفسه اطلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطالب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان به الى احترق التسولات . من هنا كان النداء الى القرايين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايماء الطقسية . وكانت هذه القرايين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هذا التسلسل ، وكانت تدعى « عين هوروس » ، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهى في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة وايرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عمايا الا ويمحي ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الالهة في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المناصرين . وشغلت مكافحة ناهبي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فهاذا نقول عن تلك الجهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطر اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرايين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بيجثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم ممن اصطدم حقهم بالخلود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على موميائهم الوضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارها فقط لان الوفرة في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغدو ابن الميت هوروس لأوزيريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الأدنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري ، شأن مجتمعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة
في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للافعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقادم للاموات ، اسندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهيم

كثيراً ان تكون رأّت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالرامية بنوع خاص . فهي قد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انك الفلاحين ما كان يقتطع من نتاج كدحهم . وهم دفعوا ، من يؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعويين لان يصبحوا الاموات العظام . وكانت قربانهم ، المحظيين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري المغفل والفخم .

الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ - الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكل الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، الملكية هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتدخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً ، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء ويهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهم الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرتها لها حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطة - الفوضى بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، غزو الهكسوس ، السيطرة الآشورية والفارسية - لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتدخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكية ابداع الامبراطورية القديمة نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي اوجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطوقسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثله الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر. غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضمت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شموليون ب « برودوريتية » لانها ، بخلوها من القاعدة وبضلعها المخوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطرار من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد ، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستتوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ . فتحددت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لما يتعلق بالجسم البشري واوصاعه وازيائه وخصايته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فمكسها معاً واعطى كلا منها نصيبه المتفاوت وفقاً لغاية عمله . احتفظ الفن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتسكاً بما في الحياة من قننة ومن نكتة احياناً . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيص لان جموح الخيال فيه لا يلبق لا بالآلهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

يتميز كل من العهود الكبرى التالية بطابع خاص يضيف الى الفن شيئاً التطور اللاحق
جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظماً داخلياً كبيراً . وتبنى الفراعنة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نلص ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتأثراً ، حتى في خشونها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلص عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلتطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثروة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع - اخناتون - القصيرة الامد فقد كانت شاملة ، على الاقل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة ، وتميزت ، في الفن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايبس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بملء اختيارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطها الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها .
مها كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطرح بوحدة الفن المصري العميقة
الجدور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم
التي تأتلف مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم 'زبن هذا الفن سلطة تؤم لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور . وقد
نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً
جباراً يتعدى الاقيسة البشرية . فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الالهة ، وكان
الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الالهة . وتفرض علينا روائع هذه
الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالماهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها
ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر باولئك الفنانين الذين
صمموا وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات
الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تفاسلاً وبهجة
والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة
الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضمياً عليها تَجَنُّاً بريئاً غدا هو نفسه ، في معالجة
بعض المواضيع ، ضرباً من ضروب الطقس .

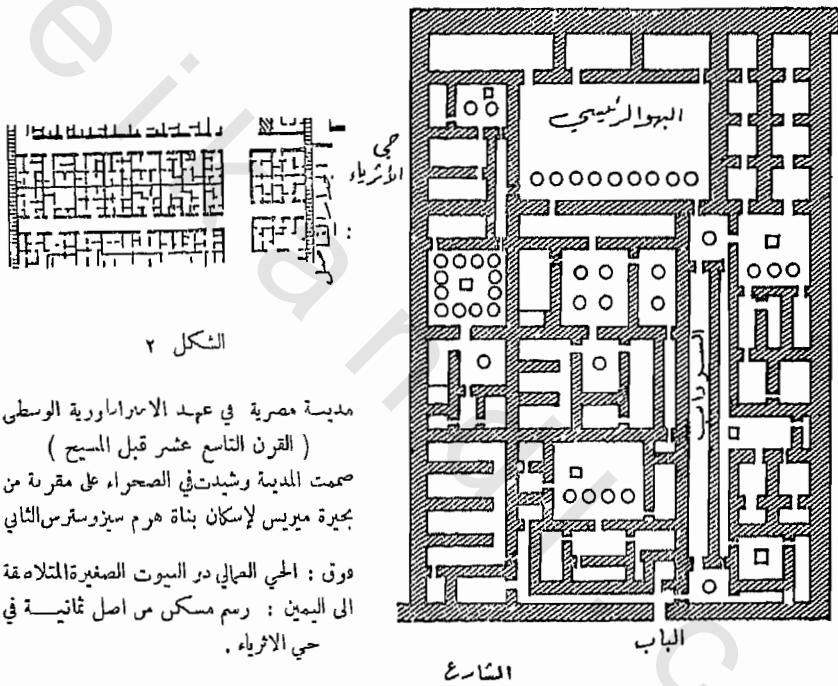
١ - الهندسة المعمارية

يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة
في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية
اولاً : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست
اليوم سوى انقراض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد
ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضاً الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام
بالتفصيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار
وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا
تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها
النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . وإذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المحامل ، اكثر تيسراً ، كما افضى انتهاء اعمال المعمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتيح وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر



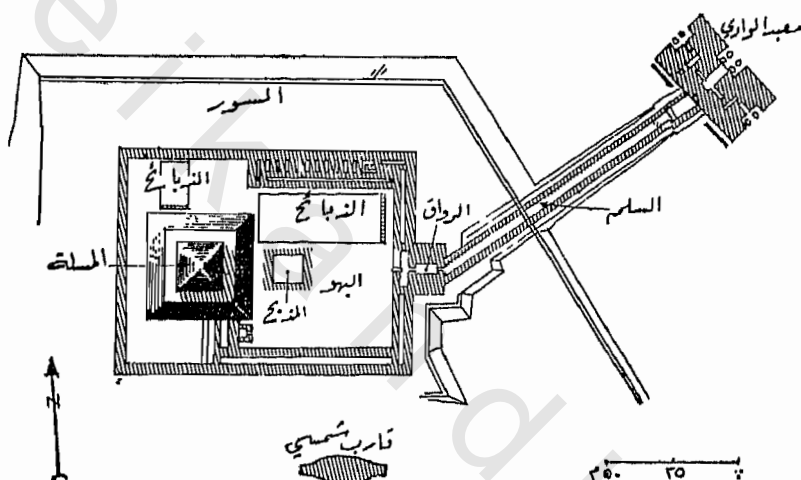
الشكل ٢
مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى
(القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من
بحيرة ميرييس لإسكان بناء هرم سيزوسترس الثاني
فوق : الحلي العالي في البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانية في
حي الانبياء .

الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام حته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التبريد ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كل هندسي رتيب هو شبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحداث والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى . ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر بشير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد ، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص به . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو يطلق السماء كما يليق به ان يكون . استغنى فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة المسلة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون ني ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل المهارنة . ولعلّ ما بقي من هذا التخصص



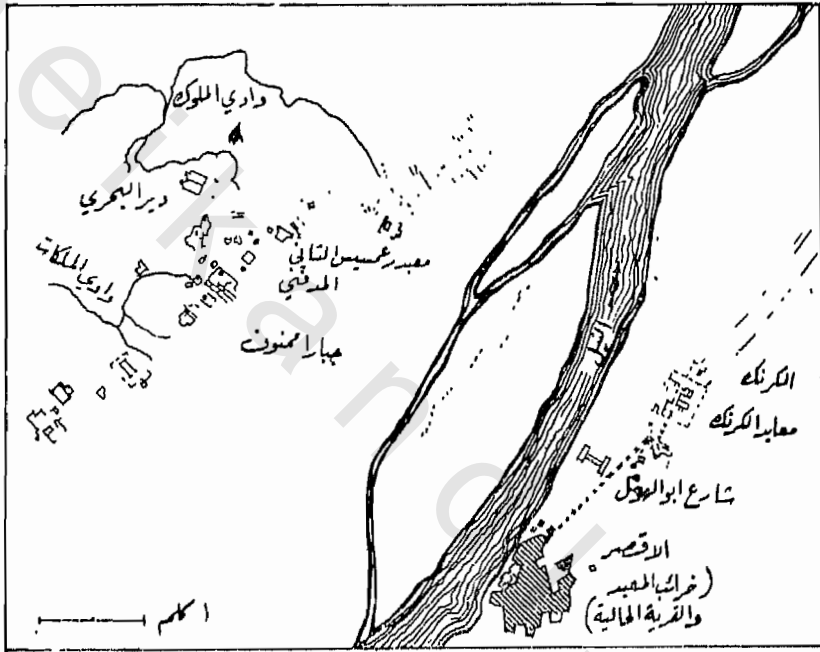
الشكل ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الخاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يستند اليه الظهر لتمثال الملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمرى ، دليل النفوذ الذي تمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته . وقد توصل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون ، اذن ، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعد حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرك والاقصر ، عند مداحل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراغة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبدي شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة أقسام أخرى مماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تحطيطاً عاماً شاملاً لاسيا وانه قد حقق ، أكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في أيام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .



الشكل ٤ - منطقة طيبة

كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تمثاله في طريق تؤدي الى معبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شاختان منحوتتان من حجر واحد تلتقيان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وإيقافها . وبعد المسلتين يقوم السور بجدران الضخمة محيطاً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة ماله ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليهما الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

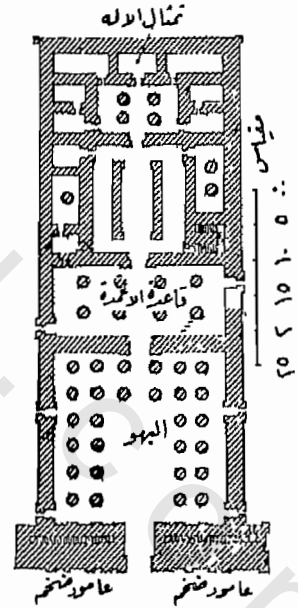
يلي هذا الباب بهو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الأعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الآله وهو يرتج على قاربه. أما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لا سيما وإن قياسات الأبنية والغرف نفسها تتضاءل أكثر فأكثر. وعلاوة على ذلك كانت الأرض، بين قاعة وقاعة، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور. ويرمز ذلك إلى صعود الشمس والمحدارها يومياً في السماء. وقد اشتركت تيجان الأعمدة نفسها أحياناً بهذه الرمزية، فتبدو الأزهار، التي تستوحىها، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة إلى اليمين واليسار، شأن الأزهار الحقيقية التي تفتح أوراقها في وضوح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل.

وهكذا فإننا نجد، بعد البهو، «قاعة الأعمدة» وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على أعمدة مختلفة الارتفاع، مما يوجد فسحاً بين الألواح يتسرب منها النور والهواء. وبالرغم من أن القياسات نموذجية، فإننا نذكر هنا بعضها لما تمطيه من إيصاحات ضرورية: تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك، التي أتم بناءها رعمسيس الثاني، ١٠٣ امتار طولاً و ٥٠ متراً عرضاً وينتصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣.٤٠ م. فلا عجب إذا ما تركت في دفوس زائريها انبلاءً لا ينسى عن جلال وعظمة هما فوق الطاقة البشرية.

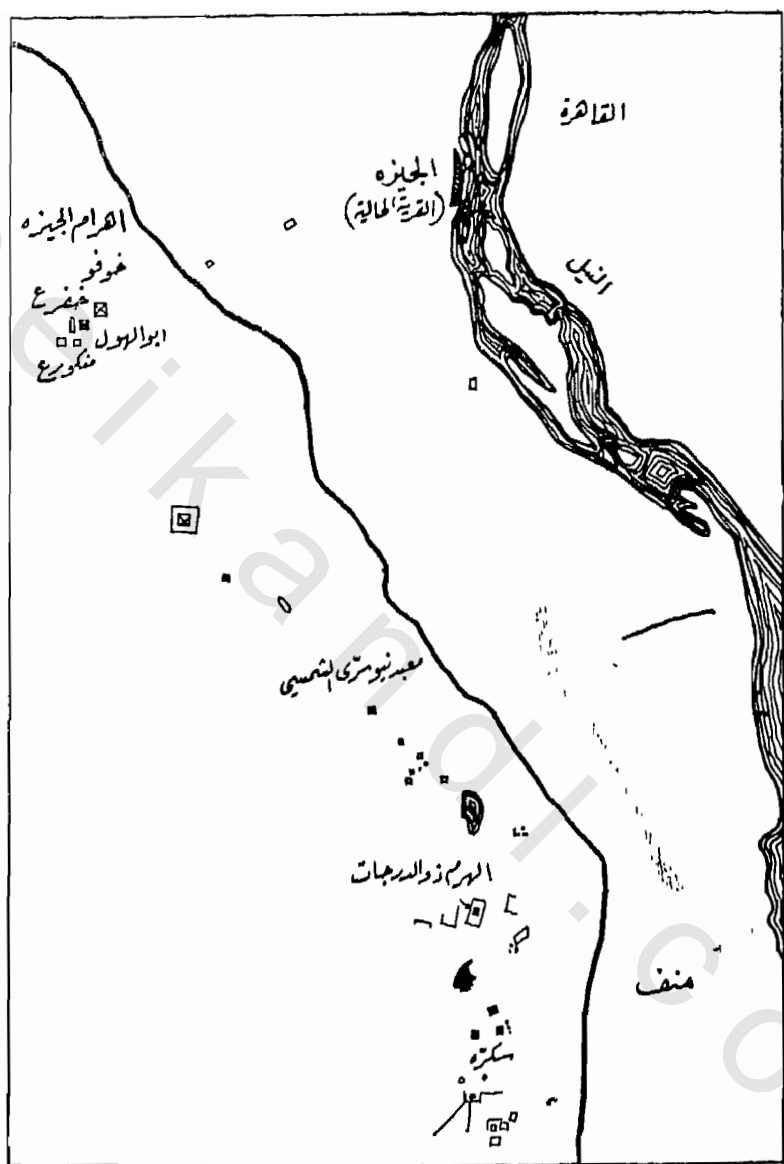
وتقوم أخيراً، في آخر المعبد، الحجرة المعدة لسكنى التمثال أي الآله نفسه، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يغمر فناء البهو نور خافت في قاعة الأعمدة. ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك أو من وُضِعَ أن يفرض الخاتم الغريبي الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل براسم العبادة.

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبة والمصنوعات الثمينة. ولكن يتوجب علينا أن نتخيل أيضاً أراضي محاطة بسور أكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدايق والبحيرة المقدسة، أي كل ما هو لازم لرفاهية الآله ولضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بملكاته.



الشكل هـ - رسم معبد خنصور في الكرنك (القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وقد حدث أن دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدية إلى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً، كما هي حال بعض المعابد «المدفنية» حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله، وهي هامة جداً حين يشيدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق



الشكل ٦ - منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلام الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعرة .

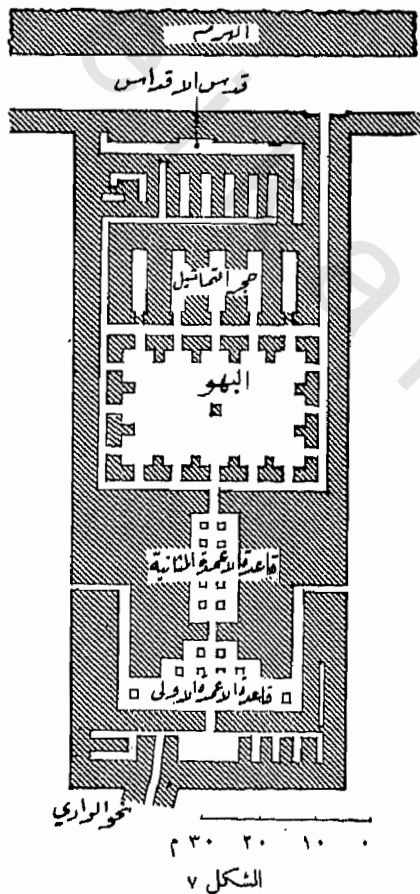
نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رعمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، يجدرانها واعمدتها التي ابقى عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدن ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزريسية .

المدفن لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، بتحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جار هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترتسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجزيرة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت نجفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « المر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حد فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب - ولذلك دعي « باباً مُضلاً » - كما ينقش احياناً في اطواره تماثل يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تماثل نصفي يرمز الى الميت مترقباً زائريه .

فهر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى ثقل او تكثرت وفقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات متروكة ادّت الى مثال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو امحوتب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقق هرم سكرته ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرين الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع »



معبّد خفرع المدفني في الوجه الشرقي من هرمه

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائماً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتتفرع عنها معابر لا منفذ لها . ولكن جميع هذه الاختياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

والثالث باسم « الهي » هو منكورع . ويجدر بنا ، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام . تغطي قاعدة الهرم الاول اكثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً ، ويبلغ علوه الاساسي ١٤٦،٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساته (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣،٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦،٤٠ متراً) .

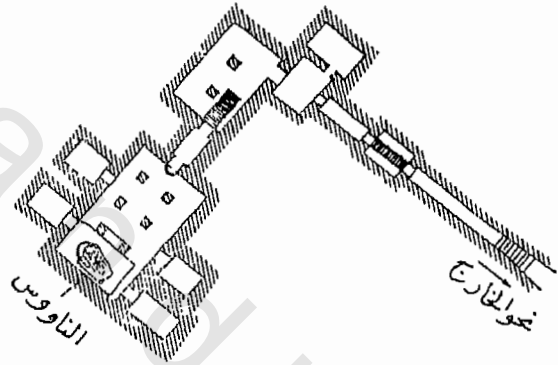
ان المخيلة لتعجز عن تقدير الجهد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكن ضخامة المجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يلزمه بهذا. القدر من الجهود .

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكلاً مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيدة في السجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف ينسلق المنحدر .

فكل هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالة هذه ، جزء من كل تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكشة القياسات ، بالاضافة الى الصخر الناتئ القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منه مثلاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبلاضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لاعضاء الاسرة المالكة ولذوي المكانات الرفيعة . والى « الشرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلست المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جداً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تنشأه حتى الافراد العاديين والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ،

كالقرميد مثلاً ، قد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قد انتقل من منف الى طيبة ، والنجاة الصحراوية ، في مصر العليا ، اكثر تشقّقاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منذ القديم ، في هذه المنطقة ، تفوص



الشكل ٨ - رسم ديباس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

في السور الصخري ، لا سيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقد منى فراغنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجو موميائهم من عبث اللصوص فاعتمدوا قبوراً تحت الارض او « دياميس » . اما معبدهم المدفني فقد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكل عناية باكوام من الانقاض والهيّار . ثم يدخل في الصخر سرداب - يدعى في اليونانية سيرنفوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور - تكثّر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلالم يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمدة عند الحاجة .

بعد اواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ ان البيئـة الطبيعية ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا اثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدثت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السرايب للأفراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الحلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما النقراء فلا غربة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف القوضى والاممال وانقراض السلالات كي يملأوا بموميائهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٢ - النقاشة والتصوير

ارفع الفنون الأخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق صناعة البائيل الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتأثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء السريعة العطب ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اصف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعمدتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حفلي عمل : التأثيل والنقوش الناتئة ، وقد حققت في كليهما تحفاً فنية مدهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كمال جليتها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجيزة ؛ والتأثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، « كجبّاري بمنون » مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيتا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليها لانه طاب لهم ان يروا فيها احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزيريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كل هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبّرت مثلها عن قوّة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلّها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة ايضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذاك الحين ، من الارث الذي تركه له ناحت الاواني الحجرية ، فعرف معالجة اقصى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السائقي والرخام السائقي ، وصقلها صقلاً مَلِصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك ببي الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قد صنع من الألواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزلت عيناه بحجارة كريمة بادرة ، والبس وررة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجعل كل شيء عن المحاولات التي سبقتها . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب والالهام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيل الصغيرة الكثيرة التي سدق مصر منتجتها الكبرى والتي تنصدها الى العالم الهليني بأسره والى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاشة مصطلحاتها وقديسياتها بفعل وثوق الصلة بينهما . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال ، ولكن في سبيل غاية محدّدة سمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتغيير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الخطر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدّة للزبن الحصوصيين ، وقد نجد بعض الجرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الجرأة ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، حالساً كان ام واقفاً ، يصنع وفقاً لما يفرضه نوعه من ميراث ويرتب ساقاه وذراعه ويدها ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعبر الساقين والذراعين سوى اهمية محدودة فيصنع الجسم وفقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يحرز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثل الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص مميزات العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الالهية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائماً مع ذلك رؤيتها .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحراً وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وستقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع يحميه جناحان يبسطها وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الحشني لاحد موطفي السلالة الرابعة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال مارييت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المقرص المعروف في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضا ، تشع عيناه انقباهاً وذكاء حاداً وتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حتشبسوت وامنوفيس الثالث الرشيق ، بالرغم من آثار التخثت فيها ، والتمثال المعروف في متحف تورينو والذي يحمل اسم رعسيس الثاني . ومن عهد سايس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعرها الهنم فوق ما قعرتها السن .

بيد انه يحذر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية . فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لهبا من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، وتواء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، اهلكت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحقارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلاوص المشاهد العائلية - الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتى الفرعون مثلاً - وبسحر رأس نفرتيتي المعروف في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفائه المستحب بالرغم من انتشار نماذجه التجارية ، وبدراسة الشهوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاش المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تقسد هي معها في تصنع ميل الى الزوال .

النقش الناقء والتصوير
اضيفت الى الكتابات التي ازدادت بها جدران الابنية نقوش ناتئة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحدته رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير النتوء . اما النقش القليل النتوء فيكاد يكون منعدم السكاكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك نتوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلمسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرعسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة إنجازها ، فاستعيض بها عن النقوش الناتئة وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراذيب عموماً وحتى في سراذيب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كانت من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بهما التصوير - دونما ظلال - والنقاشة الناتئة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكانت هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثيله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة وترى مقابلة ايضاً ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي ابهام الرجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهاراة الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة تقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشديد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناتئة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غير ما للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للتزيين . ولم تقف عبادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنائز ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيهها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القربان على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحؤول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهناك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من مأكل ومشارب وازهار والبسة تتمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولإعادة الميت الى وسط اراضيهِ والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهنالك اخيراً مشاهد القنص والصيد والملاحة والتنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهلوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحيه من ذكريات وذكريات . وتكاد هذه اللائحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نثق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل مهنة من اعمال وهنئيات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحوذت في مساعيها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللائحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقل الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدة ، ولكن بفروق تسترعي الاهتمام . وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بوحى خيالتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئات بعض التغيرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستمدة غالباً ، مفتنة ولطيفة دائماً ، وغير مستقبحة ابدأً . فالشبهون انفسهم وحتى الشرهات يحتفظون باناعتهم عندما يتقياون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاش في هذه المواضيع الخاصة ، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة ، حينذاك ، بمجدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانوية لو اتيسح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها ، والحكاية التي كشفت مفروشات مدفن توت عنخ آمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجاريها مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الاقافة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثف نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زين هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاقافة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزين في مصر ، بفعل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جهة على منشأ هذه الروائع ، بينما وقف الرحالة والمرزقة معجبين بتلك الأبنية الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشييدها . فتحت مصر ابوابها للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استألت اليها السياح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والثمينة . وبالأجمال لم ينقل الأجانب عن فنها الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من إحياء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مريباً او موجباً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخص له مكانه ، بل اهمله كما أهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحيان ، بمثابة إزهار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطها بالجلال والعظمة اولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بها ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسمية ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل واسط الألف الأول ، ان ينكشف على نفسه ولا يؤثر في غيره ويميد الصيغ نفسها أو يتكلف الرقة .

ب - الحياة العقلية

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشترك معها وتخدمها . ولكن تحقيقاتها متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النمو في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنها ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقاً سوى الأدب بمعناه المصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخلية ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فاكثراً . ولعل لذلك سبباً أقل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يجيدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلا
اليها فانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدها
مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والازهار الخاصة بها . ولكنهم
شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم
يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالاً .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات - او اجزائها - بصورة المسمى بها . فصورة
الساق تعني « الساق » مثلاً وصورة الساعد تعني « الساعد » . ولكن ما لبث الرسم الواحد ان
انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم
او الفكرة التي توحى رؤيته ، والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى
المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع
واحد ؛ والمعنى الایجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما
قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل
رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة . لذلك وضعت اشارات تحديدية
الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى
الایجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية
القديمة ، بل جعلوا من الایجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب
الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة
في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا للكتابة على
الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً
للابنية التي تكاد تضطبع كلها بصيغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم
« الهيزوغليف » اي « النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي شوهت واقتصر فيها على
القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على
البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

ومها يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان امراً شاقاً يتطلب
سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصل
ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردد اليها منذ الصغر .
فالتارين تبدأ على الواح من الحجر الطريء ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلازم على البردي .
ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الثانوية . وقد توافر في مصر
النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليابسة تقتضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصح
لغافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضل في الحجر .

الكاتب : المدارس
و « بيوت الحياة »

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلا مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تتمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كالياً . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « بيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ ويناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلائقهم ببيوت الحياة وبسخراتهم عليها ، لا لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايس الرئيسي باسم داربوس الاول : « اسسته وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيفة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا نلس هنا بمجوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما يتم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناقون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدوون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للعلم الصحيحة للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبسوغ التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الصوري للإدارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الأول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فإنه لا يزال علماً أخرق . وإذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فإنهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجاهلوا العمليات الحسابية الأخرى التي لم يستطيعوا إجرائها إلا بالاستناد إلى العمليتين الأوليين . أما الهندسة فلا تسمو أبداً إلى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، أن الإغريق قد جتلكوا الواقع الراهن الواهن حين نسبوا إلى أقدم علماءهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في أن نجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الآقنية وتشيد الابنية الضخمة ، أمر لا ينكره أحد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في أن التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب أسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « أكبر الرائيين » . فقد لاحظوا أذن بعض الأحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد . فلم يعيروا أهمية ، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لأدراكها قبل حدوثها . أجل أنهم قد حققوا فتحاً مبيناً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما اضطرت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل إلى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح إلا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف - هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالصبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الأولى ، أي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبزغ فوق الأفق ، مع اشراق الشمس ، النجمة سوتيس (الشعمرى) التي يمثلون بها إيزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، إلى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً ، وأضافوا إليها خمسة أيام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث أن يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضانات النيل وبزوغ سوتيس مع اشراق الشمس .

استناداً إلى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون أن يثبتوا ، بعملية حسابية ، أن الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث إما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، وإما بين ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً أن يتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، إلى تفضيل التاريخ الأقدم . ومهما يكن من الأمر ، لا سيما وأن الشيء لم يتقرر إلا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فإن هذا النجاح الباهر يرتقي إلى عهد متناول في القدم .

أنه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، إضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهناك على نقيض ذلك ، بصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة علمياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يحرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير العلوم الطبيعية والسر الفائدة ، فاستثمره اياما استتار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت لها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بأرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقيئة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البرديات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحي لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كانت علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادئ الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ديفوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشرع قد ارتأى بانه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ امد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبدهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واتقان .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها . فهي قد أفرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيما وان العمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرد الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فال وايام شؤم تبرزها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهناك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسم . وقد حرص الناس على ان يحملوا السائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السحر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص ، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزوا قط في مصر بروزهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد ، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر الأدب وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جذيرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرك منا الشعور احياناً ليس مدينأً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفم الملك او بفم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهناك مؤلفات اخرى تنسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أو حامها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سمتا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال الممنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش النائية والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعها اذا ما نطقوا الى نطاق ما هو مدعش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوّغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تكوين هذا المنبع . بيد انه من الجلي ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بمحادثات مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخاتمة

الحضارة المصرية والعالم القديم

ان الحضارة المصرية ادن ، بالرغم من انكماشها البالغ ، قد اتصلت أحيانا بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الاهمية عمليا .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثل هذه الشدة وهذا التطاول ، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة ، وعلى شعب بمثل هذه الكثرة وهذا الخنوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معا يضيف عليها صفة مميزة فالغة الاهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لها بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصرية قد عمّرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريبا ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعناء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد وحسب ، بل ايضا عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهناك مدلولات : الانسان والتقدم ، اجتماعا وانتصرا في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتها وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمان طويل قد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملك كثرين مثلا اعلى للعقيدة الملكية التي تبرز سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص - وقد أقامت احداها في مصر - والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احيانا بعض نظمها المحكمة . كذلك اقتبست عنها الحضارة الاسكندرية ، التي ترعرعت واردهرت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الافتان والسخرية والاحساس بالظرف الرفيع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيرا عبادة ايزيس الهها في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه النقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .